الفصل الرابع

الإسلام والغرب وقضايا الحوار

- الإسلام والغرب
- الحوار الإسلامي المسيحي
- الحوار والتسامح
- الحقيقة المطلقة وحوار الأديان
- حول الإساءات المتكررة للنبي عليه الصلاة والسلام
- ظاهرة الإرهاب :
  الأبعاد والمخاطر وآليات المعالجة

الإسلام والغرب[1]

العلاقة بين الإسلام والغرب علاقة قديمة ومتجددة . وعلى مدى تاريخ الإسلام كله تأرجحت هذه العلاقة بين مد وجذب وصعود وهبوط وحرب وسلم ولعل هناك كثيرين لا يعرفون أن البدايات الأولى لهذه العلاقة ترجع إلى زمن قديم قدم الإسلام ذاته ، وذلك فى وقت لم يكن قد حدث فيه أى لقاء مباشر بين الجانبين . ولكن البداية كانت على كل حال مبشرة بعلاقات طيبة مستقبلية ، على الأقل من جانب المسلمين . فقد أبدى المسلمون فى ذلك الوقت قبل الهجرة إلى المدينة تعاطفهم مع الروم المسيحيين عندما نشبت حرب بينهم وبين الفرس (الوثنيين فى ذلك الزمان) وانتهت بانتصار الفرس على الروم . ففرح المشركون فى مكة لأن الفرس كانوا وثنيين مثلهم ، وحزن المسلمون لأن الروم أهل كتاب مثلهم وهم أقرب إلى دينهم .وتجرأ المشركون على المسلمين وقالوا لهم : - « إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون (أى لا نؤمن بدين سماوى) . وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم » كما انتصرت فارس على الروم .

فنزلت الآيات الأولى من سورة الروم تبشر المسلمين بأن الغلبة فى المرة القادمة ستكون للروم بعد بضع سنين . وقد جاء هذا النصر بعد حوالى تسع سنوات ، ففرح به المؤمنون . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾[2] .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٦ ، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٧ .

(٢) سورة الروم : ٢ : ٥ .

وليس من غرضنا هنا أن نخوض فى تفاصيل تاريخ هذه العلاقات . ولكننا نود أن نتجه إلى المستقبل من خلال تأمل الواقع الراهن . فمتغيرات العصر المتسارعة وأحداثه المتلاحقة جعلت من الأمور الملحة ضرورة التعاون لمواجهة الأخطار المحدقة بعالمنا المعاصر . فما يجرى الآن فى مكان ما من العالم ينعكس أثره عاجلاً أو آجلاً فى كل مكان فى العالم تقريبًا . فكلنا فى عالم اليوم فى زورق واحد نتعرض جميعًا لنفس الأخطار التى تهددنا جميعًا.

وقد أُتيحت لى الفرصة فى الشهور القليلة الماضية للتحدث عن مستقبل العلاقة بين الغرب والإسلام فى محاضرتين فى كل من سويسرا وألمانيا مؤكدًا فيهما على أن مستقبل العلاقة بين عالمينا الإسلامى والغربى يتوقف على الحوار المثمر والتعاون البناء بينهما فى كل من شأنه أن يعود بالخير عليهما معًا . وقد لاحظت ظهور بعض التيارات الراديكالية فى أوروبا ، والتى لا تريد لهذه العلاقة أن تسير فى الطريق الصحيح وأن تنمو وتزدهر لصالح الجانبين ، وتحاول هذه التيارات إفساد الأجواء وإثارة الغبار وصرف الأنظار عن محاولات استعادة الثقة بين الجانبين وتحويلها إلى التخويف من خطر الإسلام والمسلمين .

وقد كان لى شخصيًا نصيب لا بأس به من الهجوم الضارى من جانب هذه التيارات قبل وبعد المحاضرة التى ألقيتها فى ألمانيا فى أكتوبر الماضى بزعم أننى أدعو إلى قتل المرتدين عن الإسلام ، وفوجئت بكم هائل من الهجوم على شبكة الإنترنت وبعض وسائل الإعلام . وعلى الرغم من ردى على هذا الاتهام فى الصحافة والإذاعة هناك إلا أن الهجوم لم يتوقف . وقد سئلت فى حديث للإذاعة الألمانية عن تفسيرى لهذا الهجوم إذا كان الاتهام باطلاً ، وكان ردى على ذلك أن لدى تفسيرًا واحدًا لهذه الحملة الظالمة وهو أن هؤلاء لا يريدون خيرًا للعلاقة بين الإسلام والغرب ، ومن أجل ذلك يحاولون جاهدين أن يصوروا الإسلام والمسلمين تصويرًا بشعًا يخيف الغرب من الإسلام والمسلمين ، كما أنهم لا يريدون أن تتاح الفرصة لصوت إسلامى معتدل يوضح الحقائق للجمهور الغربى .

وقد تأكد للجهة الداعية ممثلة فى عمدة مدينة أوزنابروك ورئيس الجامعة بها مدى كذب هذه الاتهامات . ومن هنا سارت الاستعدادات على نحو طبيعى لتنظيم المحاضرة والاستقبال فى القاعة التاريخية التى شهدت عام ١٦٤٨م إبرام اتفاقية السلام التى وضعت حدًا لحرب الثلاثين عامًا المشهورة فى التاريخ .

وبصرف النظر عن هذه المحاولات المعادية لكل ما هو إسلامى فإننى لا أزال على اقتناع تام بأن ما يجمع بين الجانبين - الغربى والإسلامى - أكثر مما يفرق بينهما . وقد أكد هذه الحقيقة الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا فى محاضرته عام ١٩٩٣ فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية حين قال : « **إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع مجالات البحث الإنسانى ، وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة ، إنه جزء من تراثنا وليس شيئًا منفصلاً عنه** » .

وفى السياق ذاته يقول روبين كوك وزير خارجية بريطانيا الراحل فى محاضرة له فى المركز الإسماعيلى فى لندن عام ١٩٩٨ : « **إن جذور ثقافتنا ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب بل هى إسلامية أيضًا ... وثقافتنا مَدينة للإسلام بدَين يجدر بالغرب ألا ينساه ... فإن الشئ الكثير من أسس حضارتنا يعود الفضل فيها إلى العالم الإسلامى** ».

وإذا كان البحر الأبيض المتوسط يفصل بين الشعوب الأوروبية والشعوب العربية الإسلامية التى تعيش على شاطئيه فإنه فى الوقت نفسه كان دائمًا حلقة وصل وجسرًا للتلاقى بين الجانبين . ومن هنا ظل التفاعل الثقافى قائمًا ومتواصلاً على مدى التاريخ رغم ما شاب هذه العلاقات فى فترات مختلفة من حروب وصدامات عسكرية .

ولكن دعاة صدام الحضارات لا يريدون أن يعترفوا بحقائق التاريخ ، بل يريدون إشعالها نارًا لا تنطفئ وحربًا لا تتوقف . ومن أجل ذلك كان الترويج ولايزال لصورة العدو المتبادلة بين الجانبين . فالإسلام هو العدو الأخضر بعد زوال صورة العدو الأحمر .

ومن هنا سمعنا فى الفترة الأخيرة شعارات تدق طبول الحرب . ومن ذلك على سبيل المثال : الغرب ضد بقية العالم The west against the rest ، والمقصود فى الحقيقة هم المسلمون على وجه الخصوص ، كما سمعنا التلميح بحرب صليبية ضد الإسلام بوصفها الوسيلة الوحيدة لحل جميع المشكلات . ومرة أخرى يتم العثور على كبش فداء لتحميله كل الآثام . فبالأمس كان استهداف اليهود ، واليوم يتم استهداف المسلمين . وأصبح من يملك القوة يستأثر بالحق ، « ومن ليس معنا فهو ضدنا» . فهل يمكن أن تكون هناك رسالة أكثر وضوحًا من ذلك ؟

إن المنادين بالصدام بين الحضارات والمروجين له يعتمدون على اختلاف الثقافات والأديان ، ومن ثم فلا أمل فى التلاقى . فالصدام فى رأيهم آت لا محالة . ولكن الذى يتأمل تاريخ البشرية يتضح له أن اختلاف الشعوب والثقافات والتفاعل الحضارى فيما بينها كان دائمًا يمثل دافعًا حاسمًا للتطور الإيجابى فى مختلف المجالات .

والقرآن الكريم لم يجعل من اختلاف الشعوب والثقافات منطلقًا للنزاع والشقاق ، بل على العكس من ذلك تمامًا . فهذه الاختلافات تعد من وجهة النظر الإسلامية منطلقًا للتعارف والتآلف والتعاون فى كل ما من شأنه أن يعود بالخير على الجميع : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1] .

ويضاف إلى ذلك أن الشعوب فى عصرنا الحاضر ، عصر العولمة ، لم تعد كحالها فيما مضى يعيش بعضها بجانب البعض الآخر ، بل أصبحت إلى حد كبير يعيش بعضها مع البعض الآخر . فإذا كنا نريد العمل على تحقيق تعاون مثمر لتفاعل الثقافات ، فخير لنا ألا ننطلق من أى تعميمات أو تصنيفات للشعوب والثقافات والأجناس ، بل علينا أن ننطلق بالأحرى بادئ ذى بدء من القواسم المشتركة التى تجمعنا ومن الأوضاع المشتركة على وجه الخصوص .

فإذا كان علينا أن نطفئ حريقًا نشب فى أحد البيوت فإننا لا نسأل عن كل من يقيمون فيه ولا ندقق فى التعرف عليهم فردًا فردًا ، بل نطفئ الحريق بأقصى سرعة

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

ممكنة ، ونعمل على ألا تنتشر النار فى البيوت المجاورة . وهذا هو موقف الإسلام الذى دعا إلى التضامن بين البشر جميعًا من أجل درء الأخطار التى تهدد العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعًا .

وفى هذا الصدد يصور النبى عليه الصلاة والسلام البشرية كلها وقد اجتمعت فى سفينة بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . فكان الذين فى أسفلها إذا احتاجوا إلى الماء صعدوا إلى أعلى السفينة . وقد تعبوا من الصعود والهبوط ومضايقة الآخرين. وتفاديًا لذلك كله فكروا فى إحداث خرق فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن هؤلاء لو تركوا يفعلون ما يشاءون هلك الجميع وغرقت السفينة[1] . ومن هنا فإنه لابد من التعاون بين الجميع من أجل درء الخطر عنهم جميعًا .

والأمر الذى لا جدال فيه أن عصرنا قد تميز عن العصور السابقة بإنجازات غير مسبوقة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات . وهذه حقيقة ماثلة للعيان . ولم تقتصر هذه التطورات بطبيعة الحال على تأمين السلم والأمن للمجتمعات بل امتدت إلى أدوات الحرب . فبينما كانت الحروب فى سابق الأزمان تنشب بين بعض البلدان ، أو فى داخل البلدان ذاتها ، تغير الوضع بعد أن ابتدع عصرنا شيئًا جديدًا وهو الحروب العالمية والقنبلة الذرية .

وهذا يعنى أن قضية الحرب والسلام - أى الهدم والبناء - قد أصبحت بدرجات متفاوتة تمس العالم كله . وهذا يعنى أن التضامن العالمى أصبح ضرورة ملحة وله أولوية على كل أشكال التضامن الأخرى ذات التكتلات أو العصبيات الضيقة . ولن نستطيع البحث عن سبل لحل مشكلاتنا المشتركة إلا إذا كنا فى العالمين الإسلامى والغربى على استعداد لأن نتخلى عن الأحكام المسبقة القديمة وأن يحترم كل منا الآخر ويحترم ثقافته وموروثاته الحضارية .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

وفضلاً عن ذلك فإن علينا ونحن بصدد اتخاذ قرارات مصيرية ألا نقصر تفكيرنا على اليوم وعلى اهتماماتنا الخاصة القصيرة الأجل وإنما علينا أن نفكر فى المقام الأول فى المستقبل الذى نحدده بقراراتنا التى نتخذها اليوم . والمستقبل لا يبدأ فى زمن بعيد ، بل يبدأ غدًا ، وإذا أردنا الدقة يبدأ فى كل لحظة وتبدأ عندئذ مسئوليتنا حيال هذا المستقبل .

وهؤلاء الذين يروجون لما يسمى بالفوضى الخلاقة فى العالم الإسلامى ، يتجاهلون المستقبل المشترك ولا يقدرون المسئولية العالمية . ولا يفكرون إلا فى سياساتهم القصيرة الأجل الهادفة إلى الهيمنة والمصالح الضيقة . والهدف من هذه الفوضى الخلاقة المزعومة هو إعلاء ثقافة الأقوى وبسط هيمنته فى هذا العالم ، وهذا يؤدى بدوره إلى تحطيم البقية الباقية من الثقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية . والترويج للفوضى الخلاقة لن يؤدى فى حقيقة الأمر إلا إلى فوضى واضطراب وفتن ونعرات عصبية وانشقاقات داخل المجتمع دون أى خلق جديد . وأمامنا النماذج المعبرة عن ذلك فى التدمير الذى تم على نحو منهجى فى بعض البلدان كالعراق ، والتخريب الذى يتم التخطيط له فى بلدان أخرى . والمتأمل فى هذه الأوضاع يتضح له أن مسار العولمة الحالية لن يؤدى إلى عولمة البشر وثقافتهم وإنما إلى عولمة الآلات والحروب .

ولعله كان من الأجدى إنفاق مئات المليارات من الدولارات - التى تنفق سنويًا على الحروب وعلى المزيد من التسلح - فى محاربة الفقر الذى يعد السبب الرئيسى لكل الصراعات ، وفى مقدمتها الإرهاب الدولى .

ومن المؤكد أن احترام ثقافات الشعوب ومعتقداتها ضرورى لفتح آفاق التعاون بين البشر . فمن حق كل أمة أن تكون لها ثقافتها ومنظومتها الاجتماعية والسياسية والقيمية الخاصة بها . والحوار المستمر بين الثقافات هو الذى يبقى عليها ويضمن تجديدها المتواصل ويرسخ قيم التسامح والاحترام المتبادل والتعددية الثقافية .

ولم يقتصر الأمر على تخريب عوالمنا الثقافية وقيمها العالمية نتيجة للحروب المتواصلة ، وإنما انتقل التخريب إلى الاستغلال الجائر والتدمير المتواصل لكوكبنا

الأرضى . صحيح أن الأرض لا ترد على ما تتعرض له بأعمال إرهابية ، بل بكوارث بيئية متزايدة تهدد العالم كله بالدمار . ومن بين الأسباب التى تعمل على تدمير البيئة على سبيل المثال انبعاث الغازات الضارة بالبيئة والاحتباس الحرارى والنفايات النووية ولا شك فى أن العالم الغربى وحده يتحمل النصيب الأكبر فى الإضرار بالبيئة.

إن ما نسعى إليه جميعًا هو فى نهاية المطاف نفس الشئ : أى حياة كريمة باعتبارنا أعضاء فى مجتمع إنسانى . وهذا يتطلب أن نسعى فى مجتمعنا المتعولم أولاً وقبل كل شئ إلى السلام فى عالمنا وإلى ما يرتبط به أو ما هو شرط له ، ألا وهو احترام حقوق جميع البشر أفرادًا وشعوبًا . ولكن الأمر المؤسف أنه غالبًا ما يتم الانحراف عن ذلك والانزلاق إلى حروب حمقاء لا معنى لها .

إننا نعتقد أن الإرادة الطيبة اللازمة للتعاون من أجل تحقيق هذا الهدف الإنسانى النبيل قائمة لدى العقلاء من الجانبين بصرف النظر عن المجموعات الراديكالية هنا وهناك . والمسئولية العالمية اليوم بالنسبة لنا لم تعد مجرد وصية من وصايا الأديان قد نتبعها وقد لا نتبعها ، فالقضية الآن قد أصبحت مصيرية ، أى قضية حياة أو موت .

والأمر الذى يجب التأكيد عليه أن اختلاف الشعوب والثقافات والديانات لا يمثل عقبة فى سبيل التوصل إلى تفاهم مشترك وتعاون بين البشر ، وإنما هو بالأحرى يمثل إثراء للتجربة البشرية ، وفهم كل منا للآخر يزيد من فهمنا لذواتنا . فنحن فى حاجة إلى الآخر ، كما أن الآخر فى حاجة إلينا . والآخر لا يمثل جحيمًا بالنسبة لنا - كما كان يقول سارتر - وإنما يمثل فى حقيقة الأمر فرصة ثرية تؤكد لدينا قيم التسامح وقبول الآخر والاحترام المتبادل ، وبالتالى تكون هناك فرصة لحل المشكلات المشتركة .

وهذا كله يتوقف على إعادة بناء الثقة بين الجانبين لإجراء حوار مثمر بينهما . ولا يجوز أن ينظر الغرب إلى الإسلام أو العالم الإسلامى على أنه مصدر الإرهاب أو بؤرة تفريخ للإرهاب . فهذه النظرة لا تعد فقط نظرة سطحية ، بل هى خاطئة تمامًا ،

وتؤدى إلى تدمير العلاقة بين الجانبين . فالإرهاب ليس من طبيعة الإسلام . والواقع يبين لنا أنه ظاهرة عالمية . والإرهابيون موجودون فى الغرب وفى الشرق على السواء ولكنهم قلة قليلة . ومن هنا فإنه لابد من أن تتعاون الكثرة الغالبة على الجانبين إلى التوصل إلى كلمة سواء .

ولكن الأمر الذى يقلق العالم الإسلامى حقًا ويثير الشكوك فى نفسه هو لجوء الغرب إلى معايير مزدوجة والكيل بمكيالين فى تعامله مع قضايا العالم الإسلامى وبخاصة فى الشرق الأوسط . وذلك فضلاً عن إشعال حروب فى المنطقة بحجة نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان فى حين أن هذه القيم ينبغى أن تنبع من الداخل ولا يمكن فرضها بالعنف . فالعنف لا يؤدى إلا إلى عنف مضاد . والعنف المضاد قد ينقلب إلى إرهاب . وفى خضم هذا الصخب المعكر لصفو العلاقات بين الجانبين الغربى والإسلامى نجد هناك أصواتًا عاقلة على كلا الجانبين وهى أصوات جديرة بالاستماع إليها والتجاوب معها .

ومن بين أمثلة عديدة فى هذا الصدد نشير إلى أحد أساتذة اللاهوت المشهورين ليس فقط فى ألمانيا بل فى العالم ، والذى أصدر ثلاثة مجلدات كبيرة درس فيها اليهودية والمسيحية والإسلام ، هذا الأستاذ هو هانز كونج الذى يقول فى محاضرة له منذ سنوات قليلة فى مدينة فرايبورج الألمانية : « **لا توجد دولة إسلامية حتى الآن قامت بالاعتداء على دولة غربية ، ولكن العكس هو الصحيح . وهذا من وجهة النظر الإسلامية يظهر الغرب فى صورة المعتدى** » .

كما يقول عالم الإسلاميات المعروف فريتس اشتبيات فى كتاب له بعنوان : «**الإسلام شريكًا**» : « **إن الإسلام لا يشكل تهديدًا للعالم . ولكن الكثيرين من المسلمين يشعرون بأنهم مهددون فى عالمنا ، ومن الممكن والحال كذلك أن تنبثق عن هذا الشعور تصرفات رعناء وعدوانية . وإذا كانت الأصولية فى العالم الإسلامى ينظر إليها على أنها رد فعل حيال موقف تاريخى فلا ينبغى لنا أن نتوقع أنها ستفقد شيئًا من أهميتها قبل أن يتغير هذا الموقف من أساسه** » .

لقد كان الإسلام شريكًا مهمًا للغرب فى تاريخ تطوره ، وتلك حقيقة لا يجوز تجاهلها ، فقد كان العالم الإسلامى هو الذى أعطى الدفعة الحاسمة لنشأة الحضارة الغربية الحديثة ، عندما كانت حضارة المسلمين فى قمة ازدهارها فى الأندلس ، وعن طريق المؤثرات الحضارية الإسلامية استطاعت أوروبا أن تتخلص فى العصر الوسيط من جمودها وتخلفها . ومن المعروف أن أوروبا لم تعرف الفلسفة اليونانية فى بادئ الأمر إلا عن طريق المؤلفات العربية ، ولم تبدأ فى التعرف عليها من مصادرها اليونانية إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر .

ومن الأمور المصيرية التى يجب أن نلفت النظر إليها ، والتى يؤكد عليها عدد من عقلاء الغرب أيضًا ، أن أمن أوروبا لم يعد من الممكن تصوره بدون استقرار الأوضاع واستتباب الأمن والسلام فى الشرق الأوسط . والسلام لا يمكن فرضه بالعنف ، وإنما يمكن التوصل إليه عن طريق الحوار ومن خلال الشراكة والتعاون بين الجانبين من أجل خيرهما معًا

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان فى رحلة البحث عن السلام أن نضع فى اعتبارنا مصلحة الأجيال الجديدة التى هى مستقبلنا . ونظرًا لأنه لم يكن لهم أى ذنب فيما حدث فى الماضى من آثام وحروب وتدمير فإنهم يستحقون منا أن نتيح لهم فرصة النجاة والبقاء ، وبالتالى نتيح الفرصة للسلام والاستقرار ، وبذلك نصنع دوائر سلام تتزايد مساحتها باستمرار .

* * *

الحوار الإسلامى المسيحى[1]

١ـ تمهيد : ضرورة الحوار :

لقد أصبحت قضية الحوار فى عالم اليوم قضية ملحة على جميع المستويات . فنحن نعيش فى عصر تشابكت فيه المصالح وتعقدت فيه المشكلات على نحو لم يسبق له مثيل . وقد أصبح البحث عن حلول لهذه المشكلات عن طريق الحوار أمرًا ضروريًا . وقد يكون الحوار محليًا أو إقليميًا أو عالميًا حسب طبيعة القضايا المثارة ، وعلى كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها من مشكلات .

ومن هنا يمكن القول بأن الحوار قد أصبح ضرورة من ضرورات العصر للتغلب على المشكلات الواقعية فى عالمنا . والقضايا الدينية تعد جزءًا لا يتجزأ من مشكلات عالمنا الواقعية ، بل تعد القضايا الدينية فى كثير من الأحيان بمثابة الخلفية الفكرية لبقية المشكلات لما للدين من تأثير عميق فى نفوس الناس . هكذا كان الحال فى السابق ، ولا يزال الحال كذلك حتى اليوم رغم ما نراه فى كل مكان من مظاهر علمانية فى الشرق والغرب أو تصريحات سياسية تنكر هذه الحقيقة .

والحوار الدينى يعد أيضًا جزءًا لا يتجزأ من الحوار بين الحضارات . فالحضارات فى كل مكان فى العالم قامت أساسًا على قاعدة من الدين . ويعد الدين حتى اليوم فى نظر كتاب معاصرين فى الغرب أحد المكونات الرئيسية لأى حضارة بالإضافة إلى اللغة والتاريخ والثقافة .

ومن هنا يصف الغرب حضارته بأنها حضارة مسيحية كما نصف - نحن المسلمين - حضارتنا بأنها حضارة إسلامية . ومن أجل ذلك كله فإن الحوار الدينى

---

(١) محاضرة ألقيت فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (مايو ٢٠٠٨) .

لا يمكن عزله عن أشكال الحوارات الأخرى ، لأنه يتشابك معها بطريقة أو بأخرى تشابكًا ظاهرًا أو خفيًا أردنا أم لم نرد . وقد أكد هذه الحقيقة أحد علماء الأديان المعاصرين المستنيرين فى ألمانيا وهو الأستاذ هانز كونج بقوله : «لن يكون هناك سلام فى العالم إلا إذا كان هناك سلام بين الأديان ، ولن يكون هناك سلام بين الأديان إلا إذا كان هناك حوار بين الأديان ، ولن يكون هناك حوار مثمر بين الأديان إلا إذا كانت هناك دراسة متعمقة للأديان » .

وإذا كان عالمنا يتجه إلى الحوار على المستويات الأخرى فمن باب أولى ينبغى أن يكون هناك حوار على المستوى الدينى بهدف القضاء على الكثير من مظاهر الصراعات التى تلعب فيها العقيدة الدينية دورًا خطيرًا . وإذا كنا فى الماضى قد شهدنا حروبًا صليبية صريحة يرفع فيها شعار الدين فنحن نشهد اليوم حروبًا مظهرها عرقى أو اقتصادى أو غير ذلك من مسميات ولكن خلفيتها دينية بالدرجة الأولى وإن أنكر البعض ذلك . وهناك أمثلة عديدة على ذلك فى عالمنا المعاصر .

٢ ـ شروط الحوار :

وقبل أن أدخل فى تفاصيل الموضوع المطروح وهو الحوار الإسلامى المسيحى أود أن أوضح أولاً شروط الحوار بصفة عامة وهو ما ينطبق فى النهاية على الحوار الدينى أيضًا .

الحوار كما هو معروف يقتضى أن يكون هناك طرفان كل منهما ند للآخر . فالحوار بين طرف قوى يدرك مدى قوته ، وطرف ضعيف على وعى بضعفه ، يجعل الطرف القوى فى وضع يملى فيه شروطه على الطرف الضعيف الذى لا يكون لديه مجال للمناورة ، ومن هنا لا يكون هناك حوار ، بل يكون بالأحرى إرغامًا وفرضًا للرأى عن طريق القوة وإن كان فى الظاهر يأخذ شكل الحوار .

ويقتضى الحوار أيضًا أن تكون هناك قضية يتحاور الجانبان بشأنها ،ولابد فى هذه الحالة أن تحدد بدقة عناصر القضية حتى لا يكون الحوار دائرًا فى حلقة مفرغة مثل حوار الصم أو « الطرشان » ، كل يتحدث بلغة مختلفة وبمفاهيم مختلفة لا تربط بينها أرضية مشتركة .

ويتطلب الأمر أيضًا تحديدًا واضحًا لأهداف الحوار حتى تكون هذه الأهداف دليل المتحاورين لا يحيد عنها طرف من الأطراف . ولا يجوز التقليل من أهمية هذا التحديد الواضح للأهداف إذ بدونه سنجد كل طرف يغنى على ليلاه الأمر الذى يبعد المتحاورين عن إمكان الوصول إلى أى شيء مفيد .

ويضاف إلى ذلك ضرورة أن يكون هناك مناخ مناسب للحوار ينأى عن الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة ، ويتحرر من العقد النفسية سواء كان ذلك يتمثل فى عقد التفوق فى جانب أو مركب النقص فى جانب آخر . فالنعرات الاستعلائية خطرها فى أى حوار لا يقل عن خطر الشعور بالدونية .

وهكذا نجد أن أى حوار يمكن أن يكتب له النجاح لا يجوز أن تكون غايته العمل على إلغاء الآخر ، أو استبعاده ، أو التقليل من شأنه ، أو الادعاء باحتكار الحق دون الآخر . ولا يجوز أن تتخذ الحوارات الدينية ذريعة لسب دين الآخرين أو الاستهزاء به والسخرية منه . وقد نهانا القرآن الكريم أن نسب المشركين حتى لا يسبوا ديننا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1] . كذلك لا يجوز أن يشتغل الإنسان المشارك فى الحوار بين الأديان بموضوعات هدفها المماراة والمخاصمة ، بل عليه أن يجتهد فى استخلاص النقاط المشتركة بين الأديان .

ويمكن القول بأن الحوار الدينى بالمعنى الحقيقى لهذا المفهوم لابد أن ينطلق بالإضافة إلى ما تقدم - من الاحترام المتبادل والمساواة التامة بين الطرفين - ومن نظرة إنسانية شاملة تقوم على احترام الكرامة الإنسانية ووحدة الجنس البشرى وانتفاء الأنانية والفهم المتبادل بمعنى التسليم بحق كل طرف فى أن يكون مفهومًا من الطرف الآخر دون أى لون من ألوان التشويه أو التزييف .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٨ .

٣ ـ موقف الإسلام من الحوار بين الأديان :

لقد انطلقت المبادرة إلى الحوار الدينى فى الأساس من الإسلام . ويعد الإسلام أول دين فى تاريخ البشرية يؤكد على ضرورة الحوار الصريح بين الأديان . وقد استطاع اتخاذ هذا الموقف لأنه أول دين يعترف بوضوح بالأديان السماوية جميعها بوصفها طرقًا موصلة إلى الله . وقد جاءت الدعوة إلى الحوار بين الأديان فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١] .

فهذه الدعوة القرآنية دعوة صريحة إلى الحوار الدينى بين طرفين : الجانب الإسلامى وجانب أهل الكتاب من المسيحيين واليهود ، وهناك قضية يدور الحوار حولها وهى القضية المحورية فى الدين أساسًا وهى قضية وحدة الألوهية .

ولا يكتفى القرآن الكريم بمجرد المبادرة ، بل يرسم أيضًا أسلوب الحوار . فالحوار سيؤدى بطبيعة الحال إلى مناقشات ومجادلات ، ولكنها ينبغى أن تلتزم بأدب الحوار . ومن هنا يقول القرآن فى ذلك : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٢] ، كما جعل القرآن الجدال بالحسنى أحد المناهج التى يتحتم على الدعاة إلى الإسلام اتباعها ، لا مع أهل الكتاب فقط ، بل مع كل الناس : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٣] .

ويمتاز موقف الإسلام فى أى حوار مع الأديان الأخرى بميزة كبرى لا تتوافر لغيره من الأديان وهى إيمانه بكل الديانات السماوية السابقة عليه - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - . وهذه الميزة تجعله متحررًا من العقد والحساسيات والنفور الذى قد يشعر به الآخرون فى مثل هذه الأحوال .

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٣) سورة النحل : ١٢٥ .

ومن أجل أن يكون هناك حوار مثمر وتعاون وثيق بين الجماعات البشرية أيًا كانت انتماءاتها - دعا القرآن الكريم إلى ضرورة تعرف كل جانب على الجانب الآخر وتفهم مواقفه على قاعدة من المساواة التامة . وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا﴾[1].

وهذه الآية تبرز المعنى الإنسانى العام لطبيعة الإسلام . فنحن نتعرف على الآخر من خلال تعرفنا على أنفسنا ، الأمر الذى يؤكد وحدة الإنسانية ، وهى تلك الوحدة التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2] . وقد أكد الإسلام هذه الوحدة تأكيدًا لا يقبل التأويل حين اعتبر أن الإساءة إلى فرد واحد من أفراد الإنسانية تعد إساءة إلى الإنسانية كلها ، وفى المقابل يعد تقديم الخير إلى فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة تقديم الخير إلى الإنسانية كلها . وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة : ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3] .

وإذا كان القرآن الكريم قد اهتم اهتمامًا واضحًا بتأكيد الوحدة بين بنى الإنسان جميعًا بصفة عامة ، فإنه من ناحية أخرى قد اهتم أيضًا بصفة خاصة بتأكيد العلاقة الوثيقة التى تربط بين المسلمين والمسيحيين فى قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4] .

وقد شعر المسلمون منذ البداية بهذه القرابة الروحية بين الإسلام والمسيحية . ومن هنا كان تعاطف المسلمين مع الروم المسيحيين عندما نشبت الحرب بينهم وبين

(١) سورة الحجرات : ١٣ .
(٢) سورة النساء : ١ .
(٣) سورة المائدة : ٣٢ .
(٤) سورة المائدة : ٨٢ .

الفرس الوثنيين آنذاك قبل الهجرة إلى المدينة المنورة . فعندما انتهت هذه الحرب بهزيمة الروم حزن المسلمون حزنًا شديدًا ، وفرح مشركو مكة لأن الفرس كانوا وثنيين مثلهم، وتجرءوا على المسلمين وقالوا لهم : «إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون (أى لا نؤمن بدين سماوى) ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم» كما انتصرت فارس على الروم .فنزلت الآيات الأولى من سورة الروم تبشر المسلمين بأن الغلبة فى المرة القادمة ستكون للروم بعد بضع سنين . وقد جاء هذا النصر الموعود بعد حوالى تسع سنوات ففرح به المؤمنون . وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

وأول من أجرى حوارًا مع المسيحيين فى الإسلام كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم . فقد أجرى حوارًا فى مسجده بالمدينة المنورة مع وفد من نصارى نجران بقيادة أسقفهم أبى الحارث . وكان حوارًا اتسم بأقصى درجات التسامح . فعندما دخل هذا الوفد إلى مسجد الرسول اتخذ أعضاؤه لأنفسهم ركنًا فى المسجد وبدءوا فى أداء صلواتهم . وقد استفز ذلك بعض الصحابة . ولكن النبى قال لهم : اتركوهم حتى ينتهوا من صلاتهم . وبعد انتهاء الصلاة جرى حوار هادئ بين النبى وبين هذا الوفد . فقد شرح لهم النبى عليه الصلاة والسلام رسالة الإسلام وما تشتمل عليه من تعاليم ، ومن جانبه شرح الوفد ما تشتمل عليه المسيحية من تعاليم . وكان هذا الحوار نموذجًا يحتذى ودرسًا فى التسامح للأجيال التالية .

ومثل هذه الحوارات الدينية الصريحة بين الأديان أو بين المذاهب المختلفة كانت تقام - على سبيل المثال - فى العصر العباسى ، وكان الخلفاء يدعمونها ، بل كثيرًا ما كانوا يترأسونها . وكانت تجرى فى جو من الصراحة الكاملة وتتضمن مناقشات علمية بين علماء يمثلون مختلف الطوائف والمذاهب والأديان .

(١) سورة الروم : ١ : ٥ .

وقد استطاع الإسلام أن يهيئ المناخ المناسب للحوار بين الأديان بما قرره من مبدأ حرية الاعتقاد والاعتراف بالتعددية الدينية التى وضع النبى عليه الصلاة والسلام أساسها الراسخ فى صحيفة المدنية التى تعد أول دستور يؤكد هذه الحقوق ويدافع عنها . وتأسيسًا على ذلك لم يلجأ الإسلام إلى إجبار أحد من أهل الكتاب على الدخول فى الإسلام .

ومن الثابت أن النبى عليه الصلاة والسلام قد كتب فى إحدى رسائله إلى أهل اليمن : «**إنه من كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يفتن عنها**»[1] ، كما كان أيضًا شديد الاهتمام بالحفاظ على الحقوق الإنسانية لغير المسلمين . ولهذا كتب - على سبيل المثال فى إحدى رسائله إلى أهل نجران : «**ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على ما لهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته**»[2] .

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون . فقد ضمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب « للسكان المسيحيين من القدس أمنهم . وأعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ... لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شئ من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام لم يقر فقط مبدأ الحوار بين الأديان بل دعا إليه ، كما قرر حرية الاعتقاد وأكد على ضرورة احترام التعددية الدينية وكفالة حقوق غير المسلمين ، وبذلك وضع الشروط الكفيلة لإنجاح أى حوار على المستوى الدينى الذى هو أعقد أنواع الحوارات على الإطلاق، لأنه لا يمس أمور الحياة الدنيوية العادية التى يمكن التساهل فيها ، وإنما يمس أمور العقيدة الدينية المترسخة فى النفوس والمتغلغلة فى الأعماق . فهى بطبيعتها أمور

(١) رواه البيهقى فى سننه .

(٢) رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

حساسة . ومع ذلك لا ينبغى أن نتهيب أو نخاف من إجراء حوار حولها إذا ما توافرت الشروط الضرورية لذلك .

٤ ـ مجالات الحوار مع الأديان الأخرى :

والسؤال المطروح الآن هو : ما هى القضايا التى يمكن أن تكون مجالاً للحوار مع أتباع الأديان الأخرى ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يمكن تلخيصها بالإشارة إلى محورين أساسيين يشكلان بصفة رئيسية مجالات الحوار الدينى الممكنة .

أولهما : الحوار حول العقائد التى تشتمل عليها الأديان .

وثانيهما : الحوار حول ما تشتمل عليه الأديان من قيم إنسانية .

(أ) حوار حول العقائد :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن القرآن الكريم قد طرح أهم قضايا الدين موضوعًا للحوار ونعنى بذلك قضية وحدة الألوهية . ومع ذلك لم يلجأ إلى أسلوب التخويف أو الإرغام لفرض وجهة النظر الإسلامية ، بل أكد فى وضوح لا لبس فيه حرية الاعتقاد : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1] . فإذا لم يقتنع الطرف الآخر بما يلقى إليه من أدلة وبراهين فهذا شأنه ، ولا سبيل لأحد عليه . فكل صاحب معتقد متمسك بمعتقده وما ترسخ فى ذهنه منذ نعومة أظفاره ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] .

ولكن ليس معنى ذلك أن الأبواب قد سُدَّت ، وأن المنافذ قد أغلقت وأننا عندئذ نكون قد وصلنا إلى مرحلة اليأس من احتمال إجراء حوار مثمر بين الإسلام والأديان السماوية الأخرى . فهناك مجال آخر للحوار يمكن أن يصل فيه الطرفان إلى نتائج إيجابية وهو مجال الحوار حول ما تشتمل عليه الأديان من قيم إنسانية .

(ب) حوار حول القيم الإنسانية فى الأديان :

وهذا مجال ثرى ، فالأديان كلها أتت من أجل خير الإنسان وسعادته فى العاجل والآجل ، والقيم الدينية فى كل حضارة كانت هى الأساس الراسخ للقيم

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

الأخلاقية السامية والمبادئ الإنسانية الرفيعة . ومن هنا فإن الحوار حول ما يجمع أصحاب الأديان من قيم إنسانية مشتركة هو أفضل السبل لتفهم كل جانب للآخر، والتعاون البناء من أجل خير الإنسان وتقدمه واستقرار الأمن والسلام فى العالم . وعلى هذا النحو يمكن إقرار السلام بين الأديان الذى يعد شرطًا لا مفر منه لإقرار السلام بين بنى البشر .

ومن هنا لابد أن يكون الهدف القريب للحوار هو الوصول إلى شكل من أشكال التفاهم المثمر ضد كل شكل من أشكال الإلحاد الذى يهدد كل الأديان، وفى سبيل الخير العام للبشرية كلها للقضاء على الكثير من أشكال الصراع فى العالم . وهذا من شأنه أن يجعل هدف الحوار النهائى هو التعايش السلمى الإيجابى بين الأديان بصفة عامة ، وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة . من أجل خير الإنسان من حيث هو إنسان حتى يعم السلام العالم كله .

وقد رسم لنا الإسلام الطريق الصحيح للتعامل مع الآخرين على أساس من التعايش الإيجابى المثمر بين الشعوب من كل الأديان طالما أن الآخرين لا يعتدون علينا . وجاء هذا التوجيه الربانى فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1] .

٥ ـ الحوار مع المؤسسة الاستشراقية :

ويتصل بالحوار الإسلامى المسيحى قضية أخرى بالغة الأهمية تتمثل فى ضرورة الحوار مع المستشرقين فى الغرب .

فالحوار مع المؤسسة الاستشراقية الغربية يعد أحد العناصر المهمة للحوار بين الإسلام والمسيحية لسبب مهم وهو أن الاستشراق فى الغرب نشأ فى الأصل نشأة لاهوتية لخدمة أغراض دينية تبشيرية . وقد كان ذلك واضحًا عندما صدر قرار مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢ بإنشاء أقسام للغة العربية فى خمس جامعات أوروبية هى

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

جامعات باريس وأكسفورد وسلمنكا وبولونيا بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية، كما أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦ قد نص صراحة على خدمة الهدف الدينى ، بالإضافة إلى الهدف التجارى أو الاقتصادى.

ولم يكن من السهل فى ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو التبشير أو عن الدافع الدينى بصفة عامة . فقد كان الدافع الدينى هو السبب الأول فى نشأة الاستشراق .

وإذا كانت الصبغة اللاهوتية للدراسات الاستشراقية حول الإسلام قد خفت حدتها وبدأ يحل محلها بالتدريج منذ منتصف القرن التاسع عشر صبغة علمية أكاديمية فإن استمرار الاستشراق فى الاشتغال بالإسلام والعلوم الإسلامية كانت نتيجته أن أصبح لدى الغرب الآن كم كبير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام لها تأثيرها الكبير فى أوساط المؤسسات الدينية الغربية .

ولا شك فى أن هناك اتجاهات عديدة فى أوساط المستشرقين فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين . فهناك المتعصبون الكارهون للإسلام ، وهناك المعتدلون الذين يحاولون تحرى الموضوعية والنزاهة العلمية فى دراساتهم عن الإسلام والمسلمين . وتاريخ الاستشراق حافل بالدراسات المنصفة والمغرضة . ومن هنا لا ينبغى أن نضع المستشرقين جميعًا فى سلة واحدة .

ومن المفيد جدًا أن يكون للمؤسسات العلمية الإسلامية صلات بالمستشرقين المعتدلين تهدف إلى إجراء حوار مستمر معهم وعقد لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين .

ولا جدال فى أن مثل هذه الحوارات سيكون لها أثرها الإيجابى على كلا الجانبين. فمن ناحية ستكون دعمًا لمواقف هؤلاء المستشرقين وتقوية لجانبهم وتشجيعًا لاتجاهاتهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة فى يوم من الأيام تيارًا عامًا فى الغرب يكون له أثره الفعال فى تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام فى العالم الغربى .

ومن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم وتقليدهم لهذه الأفكار وإعادتهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة .

والخلاصة أن الحوار مع المؤسسة الاستشراقية يدعم من غير شك الحوار الإسلامى المسيحى ، ولا يجوز تجاهله لأن الدراسات الاستشراقية تدلى برأيها فى كل خصوصيات الإسلام دينًا وحضارة وتاريخًا . وتعد هذه الدراسات أهم المكونات لتصورات المؤسسات الدينية وغير الدينية فى الغرب عن الإسلام .

عقبات فى طريق الحوار :

ولا يجوز لنا أن نتجاهل أن الطريق إلى حوار مثمر بين الإسلام والمسيحية ليس طريقًا ممهدًا ومفروشًا بالورود والرياحين ، وإنما هو طريق وعر المسالك تعترضه الكثير من العقبات التى لابد من التغلب عليها حتى يحقق الحوار أهدافه المرجوة فى التعاون البناء بين المسلمين والمسيحيين فى مختلف المجالات .

ومن بين العقبات الكثيرة على طريق الحوار نشير إلى النقاط التالية :

١ - ظاهرة الخوف من الإسلام :

لقد انتشرت فى الغرب خلال العقدين الماضيين بصفة خاصة نغمة جديدة تحذر المواطنين فى الغرب من الخطر الذى يتهددهم والذى يتمثل فى الإسلام ، وأصبح مفهوم الخوف من الإسلام أو ما يسمى (إسلاموفوبيا) يتردد على الألسنة وعلى أقلام الصحفيين والكتاب وفى شتى وسائل الإعلام الغربية ، وأصبح الإسلام هو العدو الأخضر البديل بعد زوال خطر العدو الأحمر الذى كان يمثله الاتحاد السوفيتى . وقد ترتب على ذلك انتشار موجة العداء للإسلام فى الغرب بشكل لم يسبق له مثيل . فقد أصبح ينظر إلى الإسلام على أنه مصدر الإرهاب فى العالم ، على أساس أن هناك بعض الحمقى من أبناء المسلمين يقومون بعمليات إرهابية ، فى حين أنهم لا يمثلون الإسلام ولا يمثلون العالم الإسلامى بأى حال من الأحوال .

والحق أن الإرهاب ظاهرة عالمية لا صلة لها بالأديان ولا يجوز إلصاقها بالإسلام والمسلمين . وقد عرفت أوروبا الجماعات المتطرفة والإرهابية فى النصف الثانى من القرن الماضى فى العديد من الدول الأوروبية . ولا تزال بعض هذه الجماعات تمارس هوايتها فى الإرهاب مثل منظمة إيتا فى إسبانيا على سبيل المثال .

والجميع يعلم أن هناك إرهابًا تمارسه بعض الدول مثل إسرائيل . ويغض الغرب الطرف عن ذلك تمامًا ويبرره بحجة الدفاع عن النفس .

ومن حق المسلم أن يسأل : هل كان المسلمون سببًا فى إشعال نار حربين عالميتين فى القرن الماضى واللتين راح ضحيتهما أكثر من ستين مليونًا من البشر ؟.

ومن الذى قام بمذبحة سربينيتسا Serbenica فى البوسنة عام ١٩٩٥ والتى راح ضحيتها ثمانية آلاف بوسنى مسلم لا ذنب لهم ولا جريرة إلا أنهم مسلمون .

أليس ذلك هو الإرهاب بعينه ؟

٢ - الإساءات المتكررة للإسلام :

ومن العقبات التى تعترض طريق الحوار تكرار الإساءات المتعمدة للإسلام ولنبى الإسلام سواء عن طريق الرسوم الكاريكاتورية أو الأفلام أو غيرها من وسائل النشر كالإنترنت . وتحاول الدول الأوروبية التنصل من مسئولية هذه الإساءات بحجة حق حرية التعبير المكفول للمواطنين . ونحن المسلمين مع حرية التعبير ، ولكن حرية التعبير لا صلة لها بحرية إهانة الآخرين والسخرية من معتقداتهم . والغريب أن هؤلاء الذين يتشدقون بحرية التعبير لا يستطيعون أن ينطقوا بكلمة واحدة يشتم منها من قريب أو بعيد معاداة السامية .

والأمر المؤسف والمحزن أن ينضم بابا الفاتيكان إلى قائمة المسيئين للإسلام بمحاضرته الشهيرة فى جامعة ريجنسبورج بألمانيا منذ نحو عامين والتى اتهم فيها الإسلام بالعنف ومعاداة العقل .

٣ - الانحياز التام ضد قضايا المسلمين :

ويتضح الانحياز التام ضد قضايا المسلمين بصفة خاصة فى قضية فلسطين على سبيل المثال . فلا توجد قضية فى العالم ظلت دون حل مدة ستين عامًا كاملة مثلما هو الحال فى فلسطين .

وهناك أمثلة عديدة لتطبيق المعايير المزدوجة فى القضايا الإسلامية ، وأقرب مثال على ذلك الموقف الغربى ضد قرار للجمعية العامة للأمم المتحدة فى العام الماضى (٢٠٠٧) مقدم من الدول الإسلامية يقضى بتجريم ازدراء الأديان بمناسبة تكرار الإساءة إلى الإسلام . فقد صوتت ضد القرار كل من دول الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا وإسرائيل .

٤ - المناهج الدراسية فى الغرب :

تشتمل المناهج الدراسية فى الغرب على أخطاء فاحشة فيما تتضمنه من معلومات عن الإسلام والمسلمين . فالأطفال الغربيون يلقنون فى مدارسهم صورة سلبية خاطئة عن الإسلام والمسلمين تعمق فى أذهانهم الخوف من الإسلام ومن كل ما هو إسلامى .

وعلى الرغم من أن هذه العقبات من شأنها أن تجعل الحوار الإسلامى المسيحى أكثر صعوبة فإنها من ناحية أخرى تؤكد ضرورة الحوار وتجعله أشد إلحاحًا من أى وقت مضى لإزالة تلك الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة عن الإسلام والمسلمين .

ولا يجوز لأية عقبات أن تثنينا عن المضى قدمًا فى جهود الحوار الإسلامى المسيحى لأن هذا هو السبيل لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب . وهذا هو واجبنا ، وتلك هى مسئوليتنا ولا يجوز لنا أن نتخلى عنها تحت أى ظرف من الظروف .

خاتمـــة

وفى الختام نود أن نؤكد أنه على الرغم من بعض الصور القاتمة فى علاقة الإسلام بالمسيحية الغربية فإن هناك عناصر كثيرة مشتركة بين الأديان السماوية بصفة عامة وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة . فما يجمع بين هذه الأديان أكثر بكثير مما يفرق بينها - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - . والحوار الإسلامى المسيحى يجب أن يركز على القواسم المشتركة بين الأديان السماوية . وقد أشار القرآن الكريم إلى ثلاثة أسس مهمة مشتركة بينها وهى : الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، الذى هو تطبيق للمنظومة الأخلاقية المشتركة . وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

وهذه الأسس يمكن أن تشكل ركيزة راسخة للانطلاق منها نحو التعاون المطلوب . فهناك مشكلات كثيرة مشتركة فى عالمنا المعاصر لا يمكن حلها إلا بالتعاون بين الأديان بصفة عامة وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة .

ومن بين هذه القضايا على سبيل المثال لا الحصر - قضية دور الأديان فى حماية السلام العالمى ، والتعاون بينها من أجل منع الحروب التى لا مبرر لها ، والحيلولة دون تخريب الموارد الاحتياطية للأرض نتيجة حروب عبثية لا معنى لها ، وإيقاف الحروب الدينية التى تضطهد البشر ظلمًا وعدوانًا ، وتضطهد شعوبًا بأكملها بسبب العقيدة ، والتعاون الفعال فى محاربة الإرهاب والتطرف فى كل مكان فى العالم ، والانتصار للحق والعدل بالوقوف مع الحقوق المشروعة للشعوب المظلومة ، بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية ، والتعاون كذلك فى حماية مؤسسة الأسرة التى تمثل الخلية الأولى لكل حضارة إنسانية معروفة لنا ، والتى تتعرض اليوم للانهيار .

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

ومن البديهى أن التعاون بين الأديان لا يمكن أن يتحقق طالما بقيت الأديان تنظر صامتة إلى شعوب كاملة تتعرض بسبب عقيدتها للقهر والاضطهاد اللاإنسانى. ولهذا فإن الاستناد إلى معلومات صحيحة عن الأديان وعن العناصر المشتركة بينها من شأنه أن يساعد على اتخاذ المواقف الدينية الصحيحة التى تتسم بالتسامح والعدل .

إن هناك - على سبيل المثال - إرهابًا وتطرفًا فى كل ربوع العالم ، لا فى العالم الإسلامى وحده ، كما يزعم البعض . وسيتبين لكل إنسان يسعى لمعرفة الحقيقة الموضوعية أن الإسلام ، الذى هو دين السلام ، يرفض رفضًا مطلقًا كل شكل من أشكال الإرهاب والتعصب ورفض الآخر .

ومن المعروف أن كل سورة من سور القرآن الكريم تبدأ بالبسملة التى تتضمن التوجه إلى الله سبحانه وتعالى الموصوف بأنه الرحمن الرحيم . ورسالة الإسلام جاءت رحمة للعالمين كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1] أى للبشر جميعًا دون استثناء . ومن هنا فإن عليهم فى المقابل أن يسعوا إلى تحقيق العدل والسلام .

والحوار بين الأديان على نحو يؤدى إل التعاون البناء هو السبيل الوحيد للتصدى بنجاح للظواهر السلبية فى عصرنا مثل : الإلحاد والانحلال والإدمان والإيدز والتعصب والتطرف فى الفكر أو فى السلوك . كذلك من شأنه أن يحقق نجاحًا أكبر فى حل مشكلات التنمية الاجتماعية والسياسية فى البلاد النامية .

إن من الضرورى المسارعة إذن فى مد أواصر التعاون بين الأديان من أجل حل كل هذه المشكلات ، لأنها تمس الإنسانية كلها بشكل أو بآخر . ولقد صور النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث له بشكل رمزى البشرية كأنها محمولة على ظهر سفينة واحدة[2] ، ولهذا فإن على البشرية أن تنمى الشعور بالتضامن الجماعى فيما بينها إذا أرادت لسفينتها ألا تغرق . فالأرض تحمل البشر جميعًا وهى تشبه السفينة الفضائية التى تسبح فى الفضاء الكونى .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

ونود هنا أن نقتبس هذا الحديث النبوى لتطبيقه على ما يحيط بعالمنا المعاصر من أخطار . فالحديث - كما يتضح لنا - يبين بشكل رمزى الخطر الذى تتعرض له البشرية عندما تنقسم على نفسها إلى طائفتين ، طائفة تقيم فى أعلى السفينة تلتزم بحدود الله ، وطائفة أخرى على النقيض من ذلك تقيم فى أسفلها . أما الذين فى أسفل السفينة فعليهم كلما احتاجوا إلى الماء أن يصعدوا إلى أعلى السفينة ، ولكنهم فى نهاية الأمر ضاقوا بهذا العمل ذرعًا وفرغ صبرهم ، فقرروا أن يخرقوا خرقًا فى قاع السفينة ، ليتزودوا منه مباشرة بالماء . وهذا بطبيعة الحال عمل خطير من شأنه أن يعرض السفينة للغرق ويعرض ركابها جميعًا للهلاك . ويقول النبى عليه الصلاة والسلام: «**فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»[1] .

وهذا الخرق فى السفينة الذى ورد فى هذا المثال يذكرنا بثقب الأوزون الذى يهدد الآن عالمنا الذى نعيش فيه ، كما أن مثال السفينة يذكرنا أيضًا بأننا بالفعل محمولون على ظهر الأرض كما لو كنا فى سفينة عبر الفضاء . والعمل التضامنى المشترك يمكن أن ينقذ العالم من الدمار الذى يهدد بقاءه واستمراره .

وإذا صح عزمنا على أن نقيم حوارًا سليمًا بين الأديان ، فلا ينبغى أن ننفخ فى نار الكراهية ونحيى عقد الماضى من جديد ، وأجدر بنا أن نفكر تفكيرًا إيجابيًا يتجه إلى صياغة مستقبل ينعم فيه العالم بالسلام الضرورى .

إننا نواجه اليوم أجيالاً جديدة وبالتالى عوالم جديدة ، أجيالاً لا تلام على مظالم العصور الماضية التى لم ترتكبها ، ولا تمتدح على الإنجازات الإيجابية التى أنجزها السابقون . إن ما تحتاج إليه الأجيال الجديدة منا هو ألا نضيع عليها فرصة بناء حياة خصبة ، بل نقدم إليها العون على ذلك .

* * *

(١) رواه البخارى فى صحيحه باب الشركة .

الحـوار والتسـامح[1]

لقد خلق الله الناس مختلفين فى أشكالهم وألوانهم وأعراقهم ، وسيظل هذا الاختلاف قائمًا ما بقى إنسان فى هذا الوجود . وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[2] . ولكن هذا الاختلاف لا ينسحب على جوهر الإنسان . فالإنسان فى جوهره واحد فى كل زمان ومكان ، خلقه الله من أصل واحد . ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى وضوح حين يقول : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[3] . ومن هنا فإن الاختلافات بين البشر لا ينبغى أن تكون منطلقًا أو مبررًا للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب ، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعًا إلى التعارف والتآلف والتعاون بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وإثراء للحياة والنهوض بها .

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس . فكانت اللغة التى يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم . ويعد التفاهم بين الناس عن طريق اللغة أسلوبًا راقيًا للحوار بين البشر والتواصل الفكرى فيما بينهم .

ولن يكون الحوار مثمرًا ومحققًا للأهداف المرجوة إلا إذا كان قائمًا على أساس من الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار ، احترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر حتى لو كانت مخالفة لما يتبناه من أفكار وتوجيهات . فالحوار الهادف لا ينفصل عن التسامح واحترام حرية الآخرين . والخلاف فى الرأى وفى الفكر وفى

---

(١) نشر بجريدة أخبار اليوم فى ٢١/٦/٢٠٠٨.

(٢) سورة هود : ١١٨ .

(٣) سورة النساء : ١ .

الاعتقاد لا يجوز أن يفسد ما بين الناس من علاقات إنسانية . ومن هنا شاع بين الناس القول المشهور : « الخلافُ فى الرأى لا يُفسد للود قضيَّةً » .

وكما أعطى لنفسى الحق فى أن يكون لى رأيى الخاص ووجهة نظرى المستقلة فكذلك ينبغى أن أُعطى الحق ذاته للآخر . فمن حقه أيضًا أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة ، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف . فكل فرد فى هذا الوجود له شخصيته المستقلة . وقد أعطانا الله رمزًا لهذه الاستقلالية يتمثل فى عدم اتفاق بصمة إبهام فردين فى هذا الوجود مع بعضهما . فالخلاف فى الرأى إذن شىء طبيعى وليس أمرًا شاذًا .

ومن هنا فإنه لا يجوز للمرء أن يضيق صدرًا بالآراء المخالفة لرأيه ، ليس فقط فى مجال الأمور اليومية العادية ، بل حتى فى أمور الدين والفكر والسياسة . فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدَّعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل . وقد عبر الإمام الشافعى عن هذا المعنى فى تسامح رائع - كما سبق أن أشرنا - قائلاً : «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب ».

وقد بلغت السماحة فى الفكر الإسلامى المستنير حدًا لا نظير له ، عبر عنه الشيخ محمد عبده بقوله :« لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر » ويعقب الشيخ على ذلك قائلاً : فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ .

إن الحوار - فى معناه الصحيح - ليس هدفه مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة . وإنما هدفه الأكبر إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس ، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير . والحوار بهذا المعنى قيمة حضارية ينبغى الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات .

والوعى بذلك كله أمر ضرورى يجب أن نعلمه للأجيال جيلاً بعد جيل ، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين . فالواقع المؤلم أنه كثيرًا ما تحدث مشادات عنيفة تخرج عن نطاق الموضوعية ، وربما يتطور الأمر إلى شجار وتماسك بالأيدى بين الأطراف المختلفة فى الرأى ،لأن كل جانب يريد فرض رأيه بشتى السبل .

ولا يقتصر الأمر فى هذا الصدد على المستويات الدنيا فى المجتمع ، بل ينسحب أيضًا على شريحة لا يستهان بها بين المشتغلين بالفكر وبالثقافة بصفة عامة ، حيث يصل الأمر فى أحيان كثيرة إلى حد الخروج عن مناقشة الفكر بالفكر إلى الشتائم والتجريح الشخصى الذى لا صلة له بالنقاش الموضوعى . وإن دل هذا الخروج عن الموضوعية على شئ فإنما يدل على ضحالة فى الفكر وقصور فى الحُجَّة وفقر فى المنطق.

وهذا الخروج عن الموضوعية فى الحوار على هذا النحو أمر لا يليق بالإنسان الذى كرمه الله وفضله على بقية الكائنات ، وميزه بالعقل ، وجعله خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير ، ويملأها بالعلم ، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام .

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحًا من أى وقت مضى ، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر ، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات ، بل تنسحب هذه الضرورة أيضًا على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة بصفة عامة ،وبين الأديان والحضارات بصفة خاصة ، بهدف ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى هذا العالم .

وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار فإن على المجتمع الدولى أن يصحح الأوضاع ، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضارى فى التعامل وهو « الحوار » . فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال « الحوار » ، فى جو من التسامح الإيجابى والتفاعل الخلاق بين البشر ، بعيدًا عن أى شكل من أشكال الضغط أو الإكراه أو الإملاء أو

التعالى على الآخرين، أو محاولة استبعادهم أو إلغائهم . فالجميع شركاء فى كل شىء، والناس جميعًا سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى وبما يقدمه من خير للناس . ويؤكد الحديث النبوى الشريف هذه الحقيقة فى القول المعروف «**خير الناس أنفعهم للناس**»[1] .

ولا شك فى أن عالمنا اليوم فى أشد الحاجة إلى التعايش الإيجابى بين الناس أكثر من أى وقت مضى ، نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات فى عصر العولمة يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التى أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب ، حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة .

وهذا يعنى أنهم يشتركون جميعًا فى المسئولية عما يحدث فى هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا . وإذا كان عصرنا قد شهد اتساع مساحات الحرية للأفراد والجماعات على مختلف الأصعدة فإن الحرية لن يكون لها معنى إلا إذا ارتبطت بالمسئولية . ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضًا ،لأن لهم نفس الحق الذى يطلبه الإنسان لنفسه .

وهذا يعنى أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هى - أو بالأحرى ينبغى أن تكون - علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل قيام مجتمع إنسانى يحقق الخير للجميع . وهذا لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه . فالتسامح صيغة تفاعل ، أى أنه ينبغى أن يكون من طرفين لا من طرف واحد ، والشىء نفسه ينطبق على الحوار الذى يعد تفاعلاً مع الآخر . وكلاهما - الحوار والتسامح - من القيم الإنسانية والحضارية التى لا يقوم أى مجتمع إنسانى متحضر بدون تحققها على أرض الواقع فى دنيا الناس .

* * *

(١) رواه السيوطى فى جامع الأحاديث .

الحقيقة المطلقة وحوار الأديان[1]

منذ حوالى ثلاث سنوات دعيت لإلقاء محاضرة حول « الإسلام والمسيحية » فى جامعة فيينا بالنمسا . وقبل المحاضرة كان لى لقاء مع السادة أعضاء هيئة التدريس بكلية اللاهوت . وقد سألنى عميد الكلية حينذاك عما يعد فى نظرى قضية مهمة ينبغى أن يهتم بدراستها أساتذة الكلية ؟ وكانت إجابتى عن ذلك تتلخص فى ضرورة بحث قضية موقف الأديان من امتلاك الحقيقة المطلقة .

ومن المعروف أن أتباع كل دين من الأديان يعتقدون أن دينهم وحده دون غيره الذى يمتلك الحقيقة المطلقة . والنتيجة المنطقية المترتبة على ذلك أن ما عداه من أديان يعد خارجًا عن نطاق هذه الدائرة ، وببساطة يعد دينًا غير صحيح .

ولا يقتصر الأمر فى الواقع على الأديان ، بل يتعداه إلى المذاهب المختلفة فى الدين الواحد . وأقرب مثال على ذلك ما أعلنه الفاتيكان منذ فترة قصيرة من أن الكاثوليكية وحدها هى الممثلة الحقيقية لرسالة السيد المسيح . والشىء نفسه نجده بين المذاهب السنية والشيعية المتطرفة فى تاريخنا الإسلامى التى كانت تتبادل التكفير والخروج من دائرة الإسلام .

ومن الواضح أن القضية شائكة ومعقدة وتتسم بالحساسية المفرطة . ولكن البحث فيها ضرورى بالنظر إلى جهود الحوار بين الأديان والمذاهب ، والتعاون فيما بينها . ونعتقد أن أى حوار بين الأديان لن يكتب له النجاح إلا إذا تم حسم هذه القضية ، وإلا ستظل مثل هذه الحوارات شكلاً من أشكال العلاقات العامة التى لا جدوى منها ولا فائدة ترجى من ورائها . فمن الشروط الأولية التى لابد منها

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٠/ ٨/ ٢٠٠٧ .

لإنجاح أى حوار ضرورة الاعتراف بالآخر والاحترام المتبادل والمساواة بين المتحاورين .

والذى يهمنا فى هذا المقال بصفة خاصة هو عرض وجهة النظر الإسلامية فى هذه القضية . فالإسلام - كما جاء فى القرآن الكريم - هو دين الله ، وهو دين جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى البشر وآخرهم محمد ﷺ . وقد يثير ذلك فى بادئ الأمر شيئًا من الحساسية لدى أتباع الديانات الأخرى . ولكن توضيح الأمر من شأنه أن يزيل أى لبس فى هذا الصدد . فالحقيقة واحدة وليست متعددة وإن كانت تتجلى فى أشكال مختلفة أو صور متعددة . وكل دين من الأديان جاء تعبيرًا عن شكل من أشكال هذه الحقيقة المطلقة الواحدة .

وعندما يقال إن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين كما يقول القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1] ، فينبغى أن نوضح أولاً المقصود من مفهوم الإسلام فى هذا الصدد حتى لا يكون هناك مجال لتخمينات أو افتراضات لا أساس لها .

فالإسلام بالمعنى العام يعنى إسلام الوجه لله ، وهذا أمر تشترك فيه كل الأديان . أما الإسلام بالمعنى التاريخى فهذا ما تختص به الرسالة المحمدية . وإذا كان الأمر كذلك فإن جميع الأديان التى أرسلها الله للبشر على يد الأنبياء والمرسلين تشترك فى الحقيقة المطلقة ، ولا يجوز لأى منها أن يدعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحقيقة المطلقة وأن غيره من الأديان ليس له نصيب منها .

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام نفسه آخر حلقة فى سلسلة الرسالات الإلهية للبشر ، وهذا يعنى الاعتراف بكل الرسل والأنبياء السابقين وما أنزل عليهم من كتب سماوية . ويصور النبى عليه الصلاة والسلام علاقته بالأنبياء السابقين تصويرًا رائعًا حين يقول : « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنا بيتًا فأحسنه وأجمله إلا**

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

موضع لبنة من زاوية فيه ، فكان الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

ومن هنا لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بالرسالات السماوية جميعها - كما يؤكد ذلك القرآن الكريم - : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[2] .

وهكذا يتضح لنا بجلاء ، وبما لا يدع مجالاً لأى تأويل ، موقف الإسلام من قضية امتلاك الحقيقة المطلقة . ولذلك فإن الإسلام عندما يدخل فى حوار مع الديانات الأخرى فإنه يكون غير مثقل بحساسيات أو عقد من أى نوع . فنحن جميعًا ننتسب إلى الحقيقة المطلقة الواحدة . ويذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين يعتبر أن أى دين يؤمن أتباعه بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فهو دين يحظى بالقبول من الله - كما يقول القرآن الكريم - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] .

وعلى هذا الأساس انطلقت دعوة الإسلام إلى الحوار مع أتباع الديانات السماوية . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[4] . ولم يكتف القرآن بالدعوة إلى الحوار وإنما رسم أيضًا منهج الحوار قائلاً : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[5] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، باب المناقب .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة : ٦٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٥) سورة العنكبوت : ٤٦ .

وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام أول من أجرى حوارًا دينيًّا فى مسجده بالمدينة المنورة مع وفد من نصارى نجران . وقد كان هذا الوفد مكونًا من خمسة عشر رجلاً بقيادة أسقفهم أبى الحارث . والجدير بالذكر أن أعضاء الوفد المذكور عندما دخلوا المسجد اتخذوا لأنفسهم ركنًا من أركان المسجد وبدأوا فى أداء صلواتهم . وقد استفز ذلك بعض الصحابة، ولكن النبى قال لهم : اتركوهم حتى ينتهوا من صلاتهم . وبعد انتهائهم من الصلاة جرى بينهم وبين الرسول حوار دينى اتسم بروح المودة .

وليس هناك مجال فى تعاليم الإسلام للتعصب ضد أى دين من الأديان السماوية . فالجميع - بنص القرآن - يشتركون فى الحقيقة المطلقة . وهذا الموقف يفتح الباب واسعًا للحوار الذى يؤدى إلى التعاون المثمر بين البشر جميعًا من أجل التنافس فى الخير ، كما يحثنا القرآن الكريم على ذلك فى قوله : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾[1] .

ومن التعاليم القرآنية أنه لا يجوز لنا أن نصدر أحكامًا بالكفر على هذا أو ذاك من الأفراد والجماعات ، كما لا يجوز أن نتبادل السباب مع الكافرين - كما جاء فى القرآن الكريم - : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾[2] .

وينبه القرآن الكريم إلى أن الله وحده هو الذى سوف يفصل بين الناس يوم القيامة . فالحكم على الآخرين ينبغى أن يترك أمره لله وحده خالق كل البشر ، الذى يعلم ما نخفى وما نعلن ، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بكل وضوح فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٨ .

(٣) سورة الحج : ١٧ .

ولا شك فى أن العلاقة بين الأديان لو فهمت على هذا النحو لدى أتباع الأديان الأخرى فستختفى المشكلات بين الأديان ، وتختفى معها الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة لدى كل طرف عن الطرف الآخر ، وتكون هناك فرصة حقيقية لخلق أجواء صحية للحوار والتعاون والتعايش فيما بينها من أجل ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى العالم .

ولا يفوتنا فى ختام هذا المقال أن نشير إلى أن الأدب الأوروبى لا يخلو من بعض النماذج المضيئة التى سارت فى هذا الاتجاه . ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - الأديب الألمانى الشهير « ليسنج » الذى اتسمت نظرته إلى العلاقة بين الأديان بسعة الأفق عندما عبر فى روايته «ناتان الحكيم» عن الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام بالحلقات الثلاث التى لا تتميز أى منها عن الأخرى .

والحق أنه عندما تسود النظرة الإنسانية الحقيقية بين البشر ، تلك النظرة التى ترتفع فوق كل عوامل التمييز بين الناس ، فإن ذلك من شأنه أن يفتح الباب أمام سيادة قيم التسامح والتقارب والتواصل بين الناس بعيدًا عن كل أشكال التعصب والتطرف والانغلاق . وعندئذ تكون الحقيقة المطلقة عامل تجميع لا تفريق . ومظلة واقية من كل عوامل الانقسام الدينى والشقاق المذهبى بين البشر على اختلاف معتقداتهم .

* * *

حول الإساءات المتكررة للنبى عليه الصلاة والسلام[1]

إن الأديان السماوية فى جوهرها رسالة سلام تسعى لغرس المحبة والأخوة بين الناس . ومن هنا فإنه لا يوجد بينها أى تناقض فى الأهداف التى تسعى إليها . وقد أكد النبى عليه الصلاة والسلام التكامل بين الأديان فى تشبيه رائع يقول فيه : « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنا بيتًا فجمله وأحسنه إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فكان الناس يطوفون به ويتعجبون من حسنه وجماله ولكنهم كانوا يتساءلون: هلا وضعت هذه اللبنة ليكتمل جمال البناء . ويقول النبى : فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم المرسلين** »[2] .

ومن هذا المنطلق يتعامل الإسلام مع الأديان الأخرى . ولا يجوز لمسلم بأى حال من الأحوال أن يسخر أو يستهزئ باليهودية أو المسيحية ، فنحن المسلمين نؤمن بكل الأديان السماوية دون تمييز كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[3] . وعلى هذا النحو ينبغى أن يكون التعامل بين أتباع الأديان قائمًا على أساس من الاحترام المتبادل والتعاون المثمر فى كل ما من شأنه أن يعود على البشرية كلها بالخير .

وعلى الرغم من هذه الحقائق الواضحة التى لا جدال فيها والتى يتمسك بها المسلمون ولا يساومون عليها ، فإننا نجد - للأسف الشديد- فئة من أبناء بعض الدول الأوروبية يفاجئوننا بين الحين والآخر دون أدنى مبرر بسلسلة من الإهانات

---

(١) البيان الذى ألقى فى مجلس الشورى عام ٢٠٠٨ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه ، باب المناقب .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٥ .

والإساءات للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، ولا يتورعون من نشر إساءاتهم بمختلف وسائل النشر ، سواء كانت هذه الإساءات فى شكل رسومات أو مقالات أو أفلام يتهمون فيها الإسلام ونبيه باتهامات باطلة ، ويتمادون فى سخريتهم من نبى الإسلام على نحو لا يقبله أى ضمير حى .

وفى عام ٢٠٠٥ نشرت إحدى الصحف الدنماركية رسومًا كاريكاتورية مسيئة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وخرجت المظاهرات العارمة فى كل أنحاء العالم الإسلامى مستنكرة هذا التصرف الأحمق من هذه الصحيفة ، وكان لذلك تداعيات فى حينها على المستوى التجارى والسياسى . ثم هدأت العاصفة . وكنا نظن أن الدنمارك قد وعت الدرس ، ولكننا فوجئنا مرة أخرى بأن هناك سبع عشرة صحيفة فى الدنمارك قررت إعادة نشر هذه الرسوم مرة أخرى بطريقة استفزازية تضامنًا مع الصحفى الذى نشر هذه الرسومات أول مرة بحجة أنه قد تم تهديده بالقتل .

وإمعانًا فى الإستهانة بمشاعر المسلمين طالب وزير الداخلية فى الحكومة الألمانية بأن تقوم جميع الصحف فى أوروبا بنشر هذه الرسوم دفاعًا عن حرية التعبير كما يزعم .

ومن الطبيعى أن يغضب المسلمون ويعلنون فى كل مكان استنكارهم الشديد وإدانتهم القاطعة لهذه التصرفات الحمقاء . وتعبيرًا عن ذلك اندلعت المظاهرات فى معظم البلاد الإسلامية منددة بهذه الإساءات ومنادية بالمقاطعة التجارية والسياسية وغيرها .

ولا جدال فى أن هذه المشاعر الإسلامية المتأججة والعواطف الجياشة الغيورة على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام لها ما يبررها . ومن هنا فإننا نرفض رفضًا قاطعًا هذه الاستفزازات المتكررة التى تستهين بمشاعر مليار ونصف مليار مسلم فى كل القارات . فليس هناك أدنى مبرر لهذه الإساءات لدى هؤلاء السفهاء من الناس الذين يتحدون المشاعر الإسلامية دون أى اكتراث .

ومن المفارقات الغريبة أن المحاكم الدنماركية لم تنصف المسلمين فى الدنمارك ، ورفضت كل الدعاوى التى تقدموا بها ضد المسيئين للرسول عليه الصلاة والسلام وقد طالعتنا الصحف فى ٢٠ / ٦ / ٢٠٠٨ م بخبر يقول : ردت محكمة استئناف

دنماركية أمس دعوى تقدمت بها سبع جمعيات إسلامية فى الدنمارك ضد مسئولين فى صحيفة «يلاندز بوستن» لنشرها ١٢ رسمًا كاريكاتيريًا للنبى محمد ﷺ فى سبتمبر ٢٠٠٥ م اعتبرتها هذه الجمعيات مسيئة للنبى والإسلام . وذكر بيان قضائى أن محكمة استئناف كوبنهاجن أكدت حكمًا سابقًا صدر فى أكتوبر ٢٠٠٦ عن محكمة فى مدينة آرهوس (بوسط الدنمارك) حيث مقر الصحيفة المذكورة لم يجد فى الرسوم هذه إهانة للإسلام . وزعمت محكمة الاستئناف أن الرسوم لا تمس بكرامة المسلمين، ولا تشكل ازدراء لهم .

ولكننا من ناحية أخرى نود أن نناقش الأمر فى هدوء :

أولاً : يبرر أصحاب هذه الإساءات تصرفاتهم الحمقاء بحرية التعبير التى تكفلها القوانين للمواطنين فى أوروبا . ونحن المسلمين مع حرية التعبير نؤيدها وندافع عنها . ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين حرية التعبير وحرية الإهانة والإساءة للآخرين ومقدساتهم . فلا صلة لذلك بحرية التعبير التى يتشدقون بها . ومن ناحية أخرى فإننا نتحدى هؤلاء أن يتفوه أى منهم من منطلق حرية التعبير بكلمة أو رسم أو مقال يمس من قريب أو من بعيد ، تلميحًا أو تصريحًا ، ما يسمى بمعاداة السامية. أليس الأمر هنا إذن أمر معايير مزدوجة تطبق بوضوح وبلا خجل أو حياء ؟.

ثانيًا : الإساءات للإسلام ونبيه قديمة ومتجددة . وترجع إلى القرون الوسطى فى أوروبا . والإساءات التى كانت رائجة فى ذلك الزمان عن الإسلام ونبيه أشد وأشنع من الإساءات التى تتردد اليوم . ولكنها لم تنتشر نظرًا لمحدودية وسائل النشر حينذاك . ومن هنا ظلت فى بطون الكتب . ونعتقد أن مسلسل الإساءات لن يتوقف، وسيتكرر بين حين وآخر . ولن يوضع له حد إلا إذا أصبح المسلمون أقوياء على مختلف الأصعدة . وعندئذ فقط لن يجرؤ أحد على السخرية منهم ومن دينهم ونبيهم .

ثالثًا : لقد جرب المسلمون ردود الأفعال العنيفة ، وسقط ضحايا أبرياء فى بعض البلاد الإسلامية فى غمرة الاحتجاجات منذ ثلاث سنوات . وسرعان ما تهدأ العاصفة دون اعتذار من جانب المسيئين سواء كانوا أفرادًا أو مؤسسات صحفية أو دينية أو سياسية . وقد أثبتت ردود الأفعال الصاخبة وفتاوى القتل للمسيئين فشلها فى الوصول إلى نتائج إيجابية . ونذكّر فى هذا الصدد بسلمان رشدى وروايته آيات شيطانية . فقد أصبح هذا الكاتب المغمور بعد ردود الفعل العنيفة نجمًا مرموقًا وكاتبًا لامعًا واستقبله رؤساء الدول فى الغرب بوصفه بطلاً ، وترجمت إساءاته إلى عشرات اللغات فى العالم . وكان الخاسر الوحيد فى القضية هم المسلمون . وقس على ذلك كثيرين من أمثال سلمان رشدى مثل الكاتبة البنغالية المغمورة تسليمه نسرين وغيرهما . وهناك فيلم هولندى سيعرض قريبًا بعنوان « القرآن الفاشى » ، يقوم بإعداده عضو متعصب فى البرلمان الهولندى .

رابعًا : لقد بذلت جهود دبلوماسية مصرية وإسلامية فى العام الماضى بهدف استصدار قرار من الأمم المتحدة يجرِّم ازدراء الأديان . وصدرت بعض القرارات غير الملزمة التى عارضتها الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الاتحاد الأوروبى وكندا وأستراليا وإسرائيل .

والسؤال المهم فى هذا الصدد هو : ما السبيل إذن لمواجهة هذه الإساءات المتكررة ؟ والإجابة عن هذا السؤال لابد أن تعتمد على العقل وتواجه المشكلة بطريقة موضوعية بعيدة عن الانفعالات والتشنجات . وفى هذا الصدد نعرض تصورنا المتواضع لمعالجة هذه القضية ، وذلك على النحو التالى :

١ - من الواضح أن الذين يقفون وراء الإساءات المتكررة للإسلام وللنبى عليه الصلاة والسلام يهمهم أن تحدث ردود فعل عنيفة لدى المسلمين ليضاعفوا هم من إساءاتهم ، وهذا هو الذى يحدث الآن بالفعل ، وعلى المسلمين ألا يعطوهم هذه الفرصة حتى لا يتمادوا فى غيهم ويزدادوا تطاولاً على الإسلام والمسلمين .

٢ - من الضرورى أن يعرف المسئولون فى البلاد الأوروبية وجهة النظر الإسلامية عن طريق إصدار بيانات قوية من جانب المؤسسات المختلفة فى العالم الإسلامى معلنة رفضها لهذه الإساءات واستنكارها الشديد ومطالبتها للمسئولين فى البلاد الأوروبية باتخاذ مواقف حاسمة لوضع حد لهذه الإساءات . ومنع تكرارها ، وتحذير هذه الدول مما يمكن أن يترتب على التمادى فى هذه الإساءات من تشجيع للتطرف وزعزعة للاستقرار والسلام فى العالم ، على أن ترسل هذه البيانات إلى الدول الأوروبية المعنية عن طريق سفرائها فى القاهرة .

٣ - علينا بدلاً من ردود الأفعال غير المحسوبة أن نأخذ بزمام المبادرات الإيجابية بطريقة عقلانية ، وذلك بعرض سيرته عليه الصلاة والسلام بأساليب مختلفة وبلغات عديدة عن طريق المطبوعات أو الشرائط أو الأفلام أو بأية وسيلة أخرى فعالة ومؤثرة . وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أيضًا تصورات الجاليات الإسلامية فى البلاد الأوروبية حول أفضل السبل لمواجهة هذه الإساءات ، فهذه الجاليات أقدر على معرفة التوجهات فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وأذكر أن صحيفة سويدية قد نشرت منذ بضعة أشهر بعض الرسوم المسيئة وبدأت ردود الأفعال الغاضبة فى العالم الإسلامى . ولكن رئيس الجالية الإسلامية هناك طالب فضيلة شيخ الأزهر بإلحاح بترك معالجة هذا الموضوع للمسلمين هناك دون تدخلات خارجية .

٤ - ضرورة مواصلة الحوار مع عقلاء الغرب . فإن مما لا شك فيه أن الغرب كله ليس معاديًا للإسلام . ولكن حقائق الإسلام تضيع وسط الصخب الإعلامى الغربى الذى يربط الإسلام بالإرهاب وبخاصة منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ م . ومن هنا فإن من شأن الحوار مع العقلاء فى الغرب إظهار الحقائق وكسب أصدقاء . وبذلك نواجه الإساءات بشكل مؤثر وفعال .

ولدى وزارة الأوقاف برنامج لإرسال وفود من العلماء والمفكرين للحوار مع الجهات ذات التأثير فى أوروبا على المستويات السياسية والدينية والثقافية

والإعلامية . وقد سبق أن أرسلت الوزارة وفدًا إلى كل من إنجلترا وألمانيا . وفى الشهر القادم (يونية ٢٠٠٨) سيتوجه وفد إلى فرنسا . وسوف نواصل هذا البرنامج فى دول أخرى إن شاء الله من أجل توضيح الحقائق والرد على كل ما يثار ضد الإسلام من شبهات .

وفى هذا الإطار أدانت اللجنة المشتركة للحوار بين الأزهر والفاتيكان التى عقدت اجتماعاتها منذ أيام قليلة بحضور رئيس المجلس البابوى للحوار بين الأديان - أدانت بشدة إعادة نشر الرسوم المسيئة والهجوم على الإسلام وعلى نبيه الكريم ، وناشدت المسئولين عن وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية فى كل الدول ألا تتحول حرية التعبير إلى ذريعة لإهانة الأديان والمعتقدات والرموز الدينية وكل ما يعتبره الناس مقدسًا .

٥ - من المعروف أن لدى العالم الإسلامى إمكانات اقتصادية هائلة . وعلى العالم الإسلامى أن يوظفها سياسيًا فى الاستمرار فى الجهود الدبلوماسية وممارسة الضغوط على القوى الكبرى المؤثرة لاستصدار قرارات دولية ملزمة تجرم ازدراء الأديان تتساوى مع تجريم معاداة السامية .

٦ - إن من نافلة القول أن نؤكد أن الإساءات المتكررة للنبى عليه الصلاة والسلام مهما كان حجمها وانتشارها لم ولن يكون لها أدنى تأثير على مكانة هذه الشخصية العظيمة التى تقف كالطود الشامخ تتكسر عليه كل محاولات العدوان والإساءات . ويكفى أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحمايته من المسيئين والمستهزئين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[1] أى كفيناك شرهم وحفظناك من كيدهم .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

* * *

(١) سورة الحجر : ٩٥ .

ظاهرة الإرهاب :الأبعاد والمخاطر وآليات المعالجة

١ ـ مفهوم الإرهاب :

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م أصبحت قضية الإرهاب فى مقدمة القضايا ذات الأولوية القصوى فى العالم . وعلى الرغم من أن الإرهاب بالمعنى العام يمكن أن يطلق على كل فعل من أفعال العنف أو التهديد الذى يمارسه أفراد أو جماعات أو دول على الآخرين ، فإن هذا المفهوم لا يزال مفهومًا مطاطًا غير محدد المعالم . ومن هنا نجده يستخدم استخدامات متعددة تختلف باختلاف التوجهات أو المصالح التى يتبناها الأفراد أو الجماعات أو الدول . والأمر المؤكد أن الإرهاب فى عالمنا المعاصر قد أصبح أنجع سبيل لتخويف الشعوب فى العالم الغربى من أجل تنفيذ سياسات معينة .

ولا يوجد حتى اليوم تعريف جامع مانع لمصطلح الإرهاب ، على الرغم من أن هناك حاجة ماسة لتعريف دقيق للإرهاب وذلك لوضع الأمور فى نصابها الصحيح، حتى لا يترك الأمر لأصحاب المصالح لترويج ما يريدون . وقد يرى البعض منا أن الأمر واضح وضوح الشمس ، وأننا لسنا فى حاجة إلى خبراء ليفسروا لنا ما هو واضح . ولكن المشكلة أننا لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ، وأن أصواتنا مهما ارتفعت إلى عنان السماء فإنها لن تستطيع أن تواجه الآلة الإعلامية الدولية التى تقف وراءها قوى عظمى تقرع من خلالها الآذان ليل نهار بما تريد نشره على الناس .

وقد كانت هناك محاولات من جانب بعض المتخصصين أو بعض المنظمات الدولية لتحديد معنى الإرهاب ، ولكنها لم تأت بشىء جديد . ويمكن تلخيص ما انتهت إليه فى ثلاثة عناصر أولها :- أن الإرهاب استخدام غير مشروع للعنف ،

وثانيها أنه يهدف إلى الترويع العام ، وثالثها أنه يرمى إلى تحقيق أهداف سياسية [1]. ولكن هذه المحاولات لم تصل إلى الحد الذى يمكن أن يزيل الخلط القائم بين ما هو إرهاب وما هو مقاومة مشروعة .

٢ ـ تاريخ الإرهاب :

وإذا كان العنف أو الإرهاب فى العصر الحاضر قد تم إلصاقه بالإسلام ظلمًا وعدوانًا فإن وقائع التاريخ تشير إلى أن أول منظمة إرهابية فى تاريخ البشرية قد ظهرت فى نهاية القرن الأول بعد الميلاد . وقد تشكلت على يد بعض المتطرفين من اليهود من طائفة الزيلوت (Zelot)الذين وفدوا إلى فلسطين فى ذلك الزمان لإعادة بناء الهيكل الذى عرف بالمعبد الثانى . وكانت هذه المنظمة ترتكب أعمالها فى وضح النهار وأثناء الاحتفالات العامة بهدف نشر الرعب بين الناس [2] .

وقد توالت الجرائم الإرهابية على مدى التاريخ ولدى كل الأمم والشعوب بلا استثناء قبل مجئ الإسلام وبعده . وإذا كانت جريمة الحادى عشر من سبتمبر قد اتهم فيها مسلمون فليس معنى ذلك أن الإرهاب من طبيعة الإسلام . فهذه العملية ليست إلا حلقة فى سلسلة طويلة من الحوادث الإرهابية التى عرفتها البشرية .

ولا ننسى أن أوروبا قد شهدت فى النصف الأول من القرن الماضى أبشع صور العنف الذى تمثل فى حربين عالميتين راح ضحيتهما أكثر من ستين مليونًا من البشر ، وأن النصف الثانى من القرن الماضى قد شهد ظهور جماعات إرهابية فى أوروبا قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر . وفضلاً عن ذلك فإن المسلمين كانوا فى كثير من الأحيان ضحايا الإرهاب . وما قتل ثمانية آلاف بوسنى مسلم عام ١٩٩٥م فى مدينة سريبنيتسا (Srebenica)على يد الصرب على مرأى ومسمع من المجتمع الدولى وتحت سمع وبصر قوات الأمم المتحدة إلا صورة من أبشع صور الإرهاب .

---

(١) مختار شعيب : الإرهاب ص٢٣ - القاهرة ٢٠٠١(من سلسلة موسوعة الشباب السياسية)

(٢) المرجع السابق ص ١٣ وما بعدها .

ومن ذلك يتضح أن الإرهاب ظاهرة عالمية، لا وطن له ولا دين، وأن المسلمين يعانون من الإرهاب مثل غيرهم من الشعوب . ومن الظلم البيِّن أن يتهم المسلمون وحدهم بالعنف والعدوان . فالإسلام دين يحرم العدوان ويحارب الظلم ويحترم حرمة النفس الإنسانية .

٣ ـ صور الإرهاب :

وللإرهاب صور متعددة أو أبعاد متنوعة . ولعل أوضح هذه الصور فى العصر الحاضر هى صورة تلك التنظيمات التى لها أهداف سياسة ترتدى ثيابًا دينية تريد أن تصل إليها عن طريق العنف والإرهاب .

ومن صور الإرهاب أيضًا إرهاب الدولة حينما تعتدى دولة ظلمًا وعدوانًا وضد كل القوانين والأعراف الدولية والقيم الأخلاقية على دولة أخرى بقصد نهب خيراتها أو إخضاعها لنفوذها وإملاء سياسات معينة عليها . وذرًا للرماد فى العيون ترفع الدولة المعتدية فى العادة شعارات رنانة لتبرير عدوانها من قبيل إنقاذ الشعب فى الدولة المعتدى عليها أو أى أسباب أخرى واهية . ولا يمكن أن يصدق عاقل مثل هذه الذرائع . فدوافع التعاطف الإنسانى لا مكان لها فى هذه الأحوال ، وهناك بالقطع دوافع أخرى مختلفة تمامًا عما هو معلن[1] ، وهذا أمر لم يعد خافيًا على أحد فى عالم اليوم .

وقد أدرجت القوى العظمى فى قائمة الإرهاب صورة جديدة مغلوطة تتمثل فى المقاومة المشروعة من أجل استرداد الحقوق . فعلى الرغم من أن القانون الدولى يقف فى صف الشعوب المقهورة المدافعة عن حقوقها والرافضة لاحتلال قوى أجنبية لأراضيها فإن الدول المتنفذة فى عالمنا المعاصر قد استطاعت أن تروج لما تراه إرهابًا من جانب بعض الشعوب المظلومة المدافعة عن حقوقها .

وبمقتضى ذلك أصبح الفلسطينى الذى يدافع عن حقوقه إرهابيًا . وبذلك انقلبت الموازين وأصبحنا فى عالم يستخدم معايير مزدوجة تجعل من صاحب الحق

(١) د. جلال أمين : خرافة التقدم والتخلف - ص ١٢٩ .دار الشروق ٢٠٠٧م .

إرهابيًا ومن المعتدى ضحية . وقد لجأت هذه القوى إلى ترديد ما تريد ترويجه من مفاهيم خاطئة . ومن كثرة التكرار بدأ الناس يصدقون ما يلقى إليهم عن طريق الإعلام الدولى الموجه لخدمة مصالح معينة . ولم يعد العدل هو القيمة التى ينبغى أن يدافع الجميع عنها ويقفوا بجانب إقرارها ، وإنما أصبحت المصلحة هى الحاكمة فى عالمنا المعاصر . وهذا يعنى تراجع دور القيم الأخلاقية التى من شأنها تأكيد المعانى الإنسانية الرفيعة .

والإرهاب له أسباب كثيرة منها ما هو معلن ومنها ما هو غير معلن ، وتشير العديد من البحوث - حتى فى العالم الغربى أيضًا - إلى أن من أهم أسباب الإرهاب الفقر والاضطهاد وسوء الأحوال الاقتصادية [1] وغياب الحريات وانعدام الديمقراطية و إتباع سياسة المعايير المزدوجة من جانب القوى العظمى . ولا ينفى ذلك بطبيعة الحال أن هناك أسبابًا أخرى مهمة تتمثل فى الأطماع الاستعمارية ونهب خيرات الشعوب والاستيلاء على مصادر ثرواتها - كما سبق أن أشرنا - وذلك بالإضافة إلى الدوافع الإجرامية لدى بعض الجماعات والتنظيمات التى لها أهداف سياسية مغلفة بغلاف دينى .

ولا شك فى أن انتشار الإرهاب فى بلد ما من شأنه تعطيل التنمية فى المجتمع وإعاقة التقدم وانعدام الأمن وإشاعة الفوضى . وفضلاً عن ذلك فإن استخدام الشعارات الدينية من جانب الإرهاب يسئ إلى الدين إساءة بالغة .

٤ ـ أسلوب معالجة الإرهاب :

ولا جدال فى أن الإرهاب قد أصبح مشكلة عالمية . ومن هنا فإن مواجهته تتطلب جهودًا دولية على مستويات عديدة منها ما هو أمنى أو اقتصادى أو اجتماعى أو سياسى . ومناهضة الإرهاب لا تقتصر - ولا يجوز أن تقتصر - على الدور الذى تقوم به الحكومات ، إنه ميدان تشترك فيه العديد من المؤسسات وقطاعات الأعمال والأفراد [2] .

---

(1) Bertelsmann-Stiftung in Guetersloh

(٢) الإرهاب - التهديد والرد عليه : إريك موريس وألان هو . ترجمة د . أحمد حمدى محمود ص ١٦٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م .

(أ) الغرب والإرهاب :

ومن الواضح أن سياسة الحرب على الإرهاب التى تتبعها القوى العظمى والتى تركز فى المقام الأول على الجانب الأمنى وحده قد فشلت حتى الآن فى القضاء على هذه الظاهرة أو التخفيف من حدتها ، وذلك لأنها تعالج الظاهرة من سطحها ولا تعالج أسبابها الحقيقية .

وقد دعت مصر على لسان الرئيس مبارك فى يناير عام ١٩٨٦م أمام الجمعية البرلمانية للمجلس الأوروبى بمدينة استراسبورج إلى عقد مؤتمر دولى حول الإرهاب بهدف إنشاء آلية دولية تحت مظلة الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب على غرار آلية مكافحة المخدرات ، وهذا يتطلب بطبيعة الحال ضرورة التعاون الدولى لإحكام القبضة على الجماعات الإرهابية [1]. ولا تزال الأسباب الملحة لهذه الدعوة قائمة حتى اليوم .

وقد أدت السياسة الحالية فى محاربة الإرهاب إلى اتساع دائرته كما هو الحال فى العراق - على سبيل المثال - والذى لم يكن يعرف الإرهاب قبل الاحتلال .

ومن ناحية أخرى فإن سياسة محاربة الإرهاب الراهنة لا تفرق بين الإرهاب وبين المقاومة المشروعة ، وبالتالى فلن تنجح هذه السياسة فى القضاء على الإرهاب إلا إذا تضافرت الجهود على معالجة الأسباب الحقيقية التى تؤدى إليه ، ومن ذلك ضرورة تحقيق العدالة لكل الشعوب دون تمييز . وهذا يعنى أن القضاء على الإرهاب مرهون بإزالة الأسباب المؤدية إليه .

وفى هذا السياق يقول عالم الإسلاميات الألمانى المعروف فريتس اشتيبات (Fritz Steppat) : « إن الإسلام لا يشكل تهديدًا للعالم ، ولكن الكثيرين من المسلمين يشعرون بأنهم مهددون فى عالمنا . ومن الممكن والحال كذلك أن تنبثق عن هذا الشعور تصرفات رعناء وعدوانية . وإذا كانت الأصولية فى العالم الإسلامى

(١) مختار شعيب ص ٨٢ وما بعدها .

ينظر إليها على أنها رد فعل حيال موقف تاريخى ، فلا ينبغى لنا أن نتوقع أنها ستفقد شيئًا من أهميتها قبل أن يتغير هذا الموقف التاريخى من أساسه .» [1]

(ب) المعالجة الإسلامية للإرهاب :

أما معالجة الإرهاب فى عالمنا الإسلامى فإن لها طابعًا مختلفًا ، وذلك بالنظر إلى أن الإرهاب يرتدى فى العادة ثياب الدين اعتمادًا على أن الدين لا يزال له عمق عميق فى المجتمع الإسلامى . ومن هنا فإن المعالجة الدينية تكتسب أهمية خاصة بالإضافة إلى آليات المعالجات الأخرى الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهذا ما يدعونا لأن نركز على هذا الجانب الدينى لما له من آثار بعيدة المدى .

ويمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى عنصرين مهمين فى مواجهة الإرهاب : أولهما : التوعية الدينية السلمية فى الإعلام والمؤسسات الدعوية والتعليمية . فالإرهاب يعتمد على جهل غالبية الناس بتعاليم الدين الصحيحة . وعن طريق تعليم أبنائنا التفكير النقدى والكشف عن حقائق الدين والمعرفة السليمة بتعاليمه يمكن حماية أجيالنا من عمليات غسيل المخ والانجذاب نحو الشعارات البراقة التى يرفعها الفكر المتطرف . فالإرهاب فى العادة يعتمد على فكر خاطئ وتفسيرات مغلوطة للدين ، والفكر المتطرف إذا تحول إلى سلوك أصبح إرهابًا ، ومن هنا فإن أبلغ رد على هذا الفكر الخاطئ يتمثل فى إبراز الأفكار الإيجابية التى تعد أفضل السبل لمواجهة الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة ، وذلك عن طريق الإقناع الذى يعتمد على مقررات العقل السليم ، وعلى النصوص الدينية الواضحة التى لا تحتمل التأويل . والإنسان الذى يستخدم عقله على نحو سليم لا يستطيع أى فكر متطرف أن يخدعه أو يؤثر فيه .

وكمثال على كشف خطأ توجهات الإرهاب الذى يستخدم الدين فى عمليات التفجير البشرى ، التى تسئ إلى الصورة المشرقة للإسلام ، يمكن الكشف عن أن تفجير الشخص لنفسه وسط أبرياء يعنى من وجهة النظر الإسلامية ارتكاب

(1) Fritz Steppat : Islam als Partner , Beirut 2001 , P . 392 .

جريمتين فى وقت واحد . فالجريمة الأولى هى قتل الشخص لنفسه . وهذا جرم منهى عنه فى الإسلام . فالقرآن يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (١) ، ويقول ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (٢) ، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « من تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فى نَارِ جَهَنَّم خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا ، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فى يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا » (٣) .

أما الجريمة الثانية فهى فى حق الإنسانية لأن الإسلام يعتبر قتل النفس الواحدة بغير حق بمثابة قتل للبشرية كلها - كما يقول القرآن الكريم - ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٤) .

أما العنصر الثانى فى مناهضة التطرف والإرهاب فيتمثل فى ترسيخ قيمة التسامح فى نفوس أبناء الأمة عن طريق التربية والمناهج التعليمية .

والتسامح فى الإسلام ليس مجرد قيمة نظرية أو شعار لا مضمون له وإنما كان وسيظل واقعًا معاشًا له رسوخه فى العقول ومكانته فى القلوب وجذوره فى التاريخ . وغنى عن البيان أن عالمنا المعاصر فى أشد الحاجة إلى التسامح لمواجهة طوفان التعصب والكراهية الذى يريد أن يغرق العالم فى دوامته المدمرة لسفينة هذا العالم .

ولعل التعرف على نموذج التسامح فى الإسلام وتطبيقه عمليًا فى دنيا المسلمين وإبرازه للآخرين يكون ، بالإضافة إلى مناهضته للتطرف والإرهاب ، دافعًا لهم إلى إعادة النظر فى الكثير من المفاهيم الخاطئة والأفكار المغلوطة عن الإسلام والمسلمين ، ويسهم بشكل إيجابى فى مزيد من التقارب والتفاهم والتعاون بين الأمم والشعوب فى ترسيخ أسس السلام فى العالم .

---

(١) سورة النساء : ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٥ .

(٣) رواه البخارى فى الصحيح .

(٤) سورة المائدة : ٣٢ .

والتسامح يعنى احترام التعددية الدينية والثقافية ويعنى قبول الآخر والحوار معه بصرف النظر عن انتماءاته العقدية أو العرقية ، ويعنى أيضًا احترام الرأى الآخر مهما كان مخالفًا لرأينا . فليس من حق أى مخلوق أن يدعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل . وقد عبر الإمام الشافعى عن هذا المعنى فى تسامح رائع قائلاً : « رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .ويعبر الشيخ محمد عبده عن خلق التسامح الإسلامى بقوله : « لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر » .

والتسامح الإسلامى ليس تسامحًا حياديًا ولا تسامحًا باردًا وإنما هو تسامح إيجابى يحث على التعاون مع الآخرين بلا حدود طالما أن فى ذلك خيرًا للجميع . وليس من التسامح فى شىء الرضا بالظلم والوقوف حياله موقفًا سلبيًا ، فدفع الظلم عن المظلومين وردع الظالمين مبدأ أخلاقى وإسلامى لا يجوز التفريط فيه أو الخلط بينه وبين التسامح .

فالإسلام ينتصر دائمًا لحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته الدينية أو العرقية أو الثقافية . وذلك كله يعبر تعبيرًا لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامى الذى سيظل عنوانًا على هذا الدين إلى آخر الزمان .

٥ ـ التعاون فى مجال محاربة الإرهاب :

ونظرًا إلى أن الإرهاب - كما يعرفه العالم اليوم - يمثل ظاهرة عالمية يكتوى بنارها الجميع من كل الأديان والحضارات فإن الأمر يدعو - كما سبق أن أشرنا - إلى تضافر الجهود والتعاون الوثيق من أجل القضاء على كل الأسباب التى تؤدى إلى الإرهاب وتساعد على انتشاره .

ولا شك فى أن هذا التعاون لن يتحقق على نحو فعال إلا إذا كان هناك تفاهم مشترك وإدراك حقيقى بحجم الأخطار التى تهدد الجميع والتى لن ينجو منها أحد .

وللوصول إلى هذا التفاهم المشترك لابد من الحوار بين الأديان والحضارات . فهذا الحوار هو السبيل القويم لدعم قيمة التسامح والتعايش بين البشر لمواجهة كل أشكال التطرف والإرهاب ودرء المخاطر التى تهدد البشرية وتهدد الحضارة والأديان اللذين يمثلان صمام الأمان وحصن السلام للبشرية جمعاء .

وليس هناك من شك فى أن عالمنا المعاصر فى أشد الحاجة إلى التضامن الفعال من أجل درء خطر الإرهاب والقضاء عليه حتى يعم السلام فى هذا العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعًا .

* * *